أثر البلاغة العربية في البحث اللساني العربي"الجرجاني أنموذجا"

The impact of Arabic rhetoric on Arabic linguistic research

إبراهيم مهوبي*
جامعة عمار تليجي (الأغواط)
brahimmihoubi25@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2021/10/09	تاريخ القبول: 2021/12/19

الملخص :

على الرغم من تطور البحث اللغوي العربي مدفوعا بتأثير نظيره الغربي، يبقى مدينا للدراسات اللغوية القديمة، ولا سيما البلاغية منها، بقسط غير يسير من الأثر، إن على مستوى التأصيل أو التجديد. وهو أمر لا يخفى على الباحثين المحققين الذين يقرون بذلك صراحة، من أمثال تمام حسان وأحمد المتوكل وغيرهم، ولا سيما أولئك الذين اتخذوا اللسانيات التراثية مطية لإعادة قراءة التراث .

ومنه، يهدف هذا البحث إلى إبراز بعض آثار البلاغة العربية في البحث اللساني العربي من خلال تتبع جهود بعض اللسانيين المعاصرين العرب المحدثين، مقتصرا على جهود عبد القاهر الجرجاني باعتباره يمثل المرحلة التي بلغت فيها البلاغة العربية أوجها.

الكلمات المفتاحية:

البلاغة العربية، البحث اللساني العربي، البنوية ، الاتجاه التوليدي التحويلي، التداولية، عبد القاهر الجرجاني، الأثر.

Abstract :

Despite the development of Arabiclinguistic research, driven by the influence of its Western counterpart, it remains indebted to ancient linguistic studies, particularly rhetorical ones, with abig share of impact. This is no secret to investigative researchers who acknowledge this openly and unequivocally from the likes of Tammam Hassan, Ahmed al-Mutawakkil and others, particularly those who have taken the linguistic as a ride to reread heritage.

From there, this research aims to highlight some of the effects of Arabic rhetoric in Arabic linguistic research by tracking the efforts of some modern Arab contemporary linguists, limited to the efforts of Abdel-Qahir al-Jarjani as representing the stage at which Arabic rhetoric has reached its peak.

Keywords: Arabic Rhetoric, Arabic Linguistic Research, Contemporary Trends, Abdel-Qahir Al-Jarjani, Impact.

* المؤلف المرسل: إبراهيم مهوبي

مقدمة:

يشهد عصرنا عودة إلى البلاغة باعتبارها العلم الكلي الذي تصب فيه سائر علوم اللغة، وتستفيد منه عند الحاجة. وذلك واضح للمتتبع لتاريخ البلاغة، وله من السند ما يقويه في شهادة المحدثين من الغربيين . كأولئك الذين اتجهوا إلى البحث في المجال التداولي الحجاجي (منطق الحجاج) فاكتشفوا أن ما يبحثون عنه موجود في البلاغة. فهذا برلمان في كتابيه البلاغة الجديدة وامبراطورية البلاغة يقول بأنه فوجئ وهو يحاول وضع منطق للقيم يوازي المنطق الصوري أنه وجد ما كان يبحث عنه في علم قديم يسمى البلاغة. وهذا تودوروف وإيجلتون يدعوان إلى البحث عن جوهر الأدب ونظريته في نظرية الخطاب التي كانت في الأصل تسمى البلاغة باعتبارها نظرية نقدية عامة . وهذا فانديك يرى أن علم النص هو الوريث الشرعي لعلم البلاغة.[1]

وإذا كان البحث اللغوي العربي قد تطور مدفوعا بتأثير نظيره الغربي فإنه يبقى مدينا للدراسات اللغوية القديمة عموما، والبلاغة خاصة، بقسط غير يسير من الأثر إن على مستوى التأصيل أو التجديد. وهو أمر لا يخفى على الباحثين، يظهر بوضوح من خلال إقرار بعض المحدثين بذلك، من أمثال محمد مندور و تمام حسان وأحمد المتوكل وحمادي صمود والعمري وغيرهم.

ومنه، يهدف هذا البحث إلى المساهمة في بيان بعض آثار البلاغة العربية في البحث اللساني العربي ابتداء من جهود إبراهيم مصطفى ومهدي المخزومي مرورا بجهود بعض اللسانيين العرب. مقتصرين على آثار الجرجاني باعتباره يمثل تلك المرحلة التي بلغت فيها البلاغة أوجها، مستفيدة من آثار السابقين الذين مهدوا لها باجتهاداتهم المختلفة.

الجرجاني ملتقى للاتجاهات اللسانيات العربية المعاصرة:

الجرجاني عبد القاهر من بين العلماء الباحثين المتميزين الذين لقيت دراساتهم وبحوثهم حظوة لدى المحدثين واختلفت رؤاهم في تأويلها وفهمها[2]. فكان منها التراثي الشارح والمؤرخ، وكان منها ما ينتمي إلى ما يسمى بلسانيات التراث التي تعمل على إعادة قراءة مكنونات التراث في ضوء النظريات الحديثة. يبد أن هذه النظريات لم تتفق على اختيار النظرية الملائمة لقراءة فكر الرجل، فكان لكل منهم وجهة تولاها فنظر إلى فكر الجرجاني من خلالها، حتى نسب إلى البنيوية مرة وإلى التوليدية أخرى وإلى الوظيفية ثالثة ثم إلى التداولية بعد ذلك. وقد تنشأ نظريات أخرى في المستقبل فينظر إلى فكر الرجل من خلالها، من يدري؟ وسنتناول بعض النماذج بالدراسة (وما يهمنا فيها هو ما يتصل بسبب باللسانيات الحديثة)و قبل الكلام عن الاتجاهات اللسانية المختلفة يجدر بنا التعريج على جهود بعض الثائرين على النحو العربي المتأثر بنظرية العامل والداعين إلى إعادة إحيائه باتباع طريقة الجرجاني .

بوادر ثورة في الدرس النحوي

استقر الأمر في النحو العربي على نظرية العامل ولم تفتأ الشروح والحواشي تتوالى مفسرة أو موسعة حتى إنك لتجد في الكتاب الواحد ثلاثة شروح أو أكثر، مع الاختلاف في المسألة الواحدة

والإسهاب في الشرح، مما صعب من مهمة الباحثين عموما والطلبة بوجه خاص، وولد شيئا من النفور من النحو وموضوعه ومنهجه . وقد أقر بذلك بعض كبار المشتغلين بالنحو في العصر الحديث. نذكر منهم إبراهيم مصطفى الذي يقول : " اتصلت بالنحو في كل معاهده التي يدرس فيها بمصر، وكان اتصالا وثيقا طويلا، ورأيت عارضة واحدة، لا يكاد يختص بها معهد دون معهد، ولا تمتاز بها دراسة دون دراسة، وهي التبرم بالنحو، والضجر بقواعده وضيق الصدر بتحصيله " [3].

والسبب في هذه المعاناة ،كما يبدو لإبراهيم مصطفى، هو اشتغال النحاة بالحركة الإعرابية وقصر البحث النحوي عليها، فيقول "فالنحاة حين قصروا النحو على أواخر الكلمات ضيقوا حدوده الواسعة، وسلكوا به طريقًا منحرفة إلى غاية قاصرة، وضيَّعوا كثيرا من أحكام نظم الكلام وأسرار تأليف العبارة. فطرق الإثبات، والنفي، والتأكيد، والتوقيت، والتقديم، والتأخير، وغيرها من صورٍ الكلام قد مروا بها من غير درس، إلا ما كان منها ماسا بالإعراب، أو متصلا بأحكامه، وفاتهم لذلك كثير من فقه العربية، وتقدير أساليبها."[4] إذن هو تبرم من الموضوع الذي يدور عليه النحو العربي، الحركة الإعرابية التي بنيت عليه الإحكام، وفسرت التراكيب انطلاقا منها، وذلك في نظر المتبرمين تضييق لمباحث النحو التي تبدأ من الصوت ولا تنتهي إلا بالاستفادة من قوانين الخطاب المختلفة. وقد فرضت العناية بالعلامة الإعرابية طريقة معينة في تبويب النحو، كانت هي بدورها محل انتقاد. يقول إبراهيم مصطفى: " ليس" درست في باب "كان" لأنها تعمل عملها على أن "كان " للإثبات و "ليس" للنفي، وعلى أن "كان " للمضي و "ليس" للحال ، ولكن العمل وحده، وهو الحكم اللفظي، كان سبب التبويب والتصنيف. " ما " و "إن " درستا في باب ألحق بكان لأنهما يماثلانها في العمل . " لا " درست ملحقة بكان " ثم تابعة لإن إذ كانت تماثل الأولى في العمل مرة ، وتماثل الثانية فيه مرة أخرى"[5] وقس على ذلك يقية الأدوات ومثله شأن أخوات "إن " وغيرها.

وقد بدا لإبراهيم مصطفى أن بارقة الأمل في إحياء النحو تبدو في انتهاج نهج عبد القاهر الجرجاني الذي "بين أن للكلام نظما وأن رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل إلى الإبانة والإفهام "[6] فيقول:" وقد آن لمذهب عبد القاهر أن يحيا، وأن يكون هو سبيل البحث النحوي" [7].

ويبدو أن من ثمار فكر الجرجاني على إبراهيم مصطفى تعريفه للنحو بقوله: "هو قانون تأليف الكلام وبيان لكل ما يجب أن تكون عليه الكلمة في الجملة ، والجملة مع الجمل، حتى تتسق العبارة ويمكن أن تؤدي معناها"[8]. ونفهم من هذا التعريف أن صاحبه أراد أن يخرج البحث النحوي من إطار الأثر الإعرابي الضيق إلى إطار المعنى الفسيح الذي تجتمع لأدائه كل الظواهر اللغوية المختلفة ثم إنه يجعل من النحو قانونا لتأليف الكلام اقتداء بالجرجاني الذي جعل البحث في معاني النحو واسطة العقد، باعتباره الأساس الأول الذي يبنى عليه الكلام ثم الجمع بين ما يطرأ على الكلمات من أحوال تختلف بحسب الإطار الذي تعالج، فيكون ذلك التكامل بين علوم اللغة المختلفة. ونفهم منه أيضا خروجا مبكرا عن إطار الجملة إلى إطار النص عندما يجعل من مباحث النحو علاقة الجملة مع الجمل. وهذا ليس غريبا على من يقتدي بالجرجاني الذي ما فتئ يعالج المباحث النحوية في إطار الخطاب القرءاني والمقاطع الشعرية وليس في إطار الجملة الواحدة فقط.

لكن هذا التعريف الذي أورده إبراهيم مصطفى كان أوسع مما ضمنه كتابه، بل إن تطبيقات الجرجاني كانت أقرب إلى ما أراده، وأكثر إلماما بالمباحث التي أشار إليها التعريف على الرغم من بعد الشقة والسبق. فقد تناول الجرجاني التقديم والتأخير والحذف والفصل والوصل والحصر وغير ذلك مما له صلة بموضوع النحو ،وقد انتبه إبراهيم مصطفى إلى هذه المباحث ولكن شغل عنها بقضايا التبويب وبعض المباحث الصرفية. ولا عجب في ذلك فأمر النحو أكبر من أن يتم على يد رجل واحد. ولكن إبراهيم مصطفى لم يعدم تلاميذ حاولوا تجسيد أفكاره في أرض الواقع، كان من بينهم مهدي المخزومي.

جسد المخزومي بعض أفكار أستاذه إبراهيم مصطفى ودعا معه إلى ضم علم المعاني إلى علم النحو. وقد ظهر التجسيد، فعلا، حين دعا إلى اتخاذ الجملة موضوعا للنحو باعتبارها الوحدة الأساسية في الخطاب أو الوحدة الكلامية الصغرى على حد تعبير المخزومي [9] مدفوعا في ذلك بأقوال البلاغيين ومنها قول السكاكي الذي يرى أن "علم النحو أن تنحو معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى"[10]. وهي نفس الفكرة التي يبني عليها الوظيفيون درسهم حين يربطون بين البنية والوظيفة. ويأخذ المخزومي على النحاة أنهم لم يدرسوا الجملة، ولا يذكرونها إلا ذكرا معزولا لا نجد له ظلا في المعالجة، مما فصل دراسة النحو عن دراسة المعاني[11]. يقول:"والجملة خاضعة لمناسبات القول... لا يتم التفاهم في أية لغة من اللغات إلا إذا روعيت تلك المناسبات ...ولن يكون الكلام مفيدا ، ولا الخبر مؤديا غرضه ما لم يكن حال المخاطب ملحوظا ليقع الكلام في نفس المخاطب موقع الاكتفاء والقبول" [12] لأجل ذلك حرص أصحاب المعاني وأسهبوا في مقتضى الحال وظاهر الحال عرفانا منهم بعلاقة ظروف القول بما يصدر عن المتكلم من قول[13]. ويستشهد لذلك بمعالجة الزمخشري للكلام واعتباره العلاقة بين المتكلم والسامع وربطه الكلام بمناسبة القول وبالمثال الذي أورده الجرجاني عن الكندي الفيلسوف وأبي يزيد المبرد حينما بدا له أن في قولهم: عبد الله قائم، وإن عبد الله قائم، وإن عبد الله لقائم، حشوا، فبين له المبرد أن الكلام مختلف بحسب حال السامع فتقول الأول للإخبار والثاني للمتردد والثالث للمنكر فاختلف التركيب لاختلاف حال السامع[14]. والمخزومي يدعو إلى دراسة التركيب النحوي بهذه الطريقة وقد حاول ذلك بتناوله مجموعة من الأساليب (التوكيد، والنفي، والاستفهام، والشرط... وغيرها). يريد بذلك رسم طريق جديد للدرس النحو ينتقل بهمن العناية بأواخر الكلم إلى العناية بالجملة ومكوناتها، وعلاقة ذلك بالقصد والظروف المحيطة. وفي هذا تأثر واضح بطريقة البلاغيين في دراسة اللغة.

مما سبق يتبين تأثر بعض المحدثين من النحويين بالبلاغيين عامة وبالجرجاني خاصة. وسنحاول فيما يلي تتبع أثر الجرجاني في بعض المنتمين إلى الاتجاهات اللسانية المختلفة.

1- اللغة نظام من العلاقات

حين يصف الجرجاني العلاقات والتناسق بين مكونات الجملة يذكر التأليف والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض حتى يكون لوضع كل حيث وضع علة تقتضي كونه هناك وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح[15] وهذا الوصف يلتقي مع تعريف

النظام حين يعرف بأنه: ""مجموعة من العناصر المتناسقة والمتداخلة"[16] لأنه يشير إلى تلك العلاقات التي تحكم ربط المكونات بعضها ببعض مما يجعلها أشبه بالبناء والوشي والتحبير في إحكامه. لفتت هذه المعاني نظر محمد مندور فإذا هو يقول في إعجاب: "وفي الحق إن عبد القاهر قد اهتدى في العلوم اللغوية كلها إلى مذهب لا يمكن أن نبالغ في أهميته، مذهب يشهد لصاحبه بعبقرية لغوية منقطعة النظير. وعلى أساس هذا المذهب كون مبادئه في إدراك دلائل الإعجاز. مذهب عبد القاهر هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة في أوربا لأيامنا هذه، هو مذهب العالم السويسري الثبت فردناند دي سوسير"[17]. لقد فطن عبد القاهر إلى أن اللغة ليست مجموعة من الألفاظ بل مجموعة من العلاقات système de rapports . ويرى مندور أن جماع الأمر عند الجرجاني مسألتان،"الأولى: إنكاره لما رآه الجاحظ من أهمية فصاحة الألفاظ باعتبار تلك الفصاحة صفة في اللفظ ذاته ثم ثورته على مذهب العسكري الذي يرد جودة الكلام إلى محسنات لفظية تقف عند الشكل. والثانية: تعليقه جودة الكلام بخصائص في النظم"[18] والجرجاني حين يخالف العسكري مشدود إلى عنايته بالبيان والإفهام الذي قد يفسده إثقال التركيب بالمحسنات، فيقول:" وقد تجد في كلام المتأخرين الآن كلاما حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع، إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم، ويقول ليبين، ويخيل إلي أنه إذا جمع بين أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء، وأن يقع السامع منه في خبط عشواء وربما طمس بكثرة ما يتكلفه على المعنى وأفسده كمن ثقّل العروس بأصناف الحلْي حتى ينالها من ذلك مكروه في نفسها".[19]

فالمهم في اللغة ليس الألفاظ، بل مجموعة الروابط التي نقيمها بين الأشياء بفضل الأدوات اللغوية، وتلك الروابط هي المعاني المختلفة التي نعبر عنها، ومن ثم كانت أهميتها وما لها من صدارة على الألفاظ"[20] ويجد مندور مبررا لما يقوله في قول الجرجاني : "واعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت "[21]. وفي قوله:" هذا هو السبيل فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا، وخطؤه إن خطأ، إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم إلا وهو معنى من معاني النحو قد أصيب به موضعه، ووضع في حقه أو عومل بخلاف هذه المعاملة، فأزيل عن موضعه ، واستعمل في غير ما ينبغي له فلا ترى كلاما قد وصف بصحة نظم أو فساده، أو وصف بمزية وفضل فيه إلا وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزية وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه، ووجدته يدخل في أصل من أصوله، ويتصل بباب من أبوابه"[22].

استخلص محمد مندور من الأقوال السابقة أن منهج الجرجاني "هو منهج النقد اللغوي ، منهج النحو الذي يفهم منه أن النحو هو العلم الذي يبحث في العلاقات التي تقيمها اللغة بين الأشياء"[23].

ويبدو محمد مندور متأثرا جدا بأفكار دوسوسير حين يختار من أفكار الجرجاني التي نوه بها العلاقات بين المكونات، مبرزا عناية الجرجاني بها، ولكنه يغفل عما يناسب هذه العلاقات من قضايا المقام الذي يقصيه دوسوسير ويسميه لسانيات خارجية. أما الجرجاني فهو لا يتناول تلك العلاقات إلا

مرهونة بظروف استعمالها والأغراض المرومة من ورائها. من ذلك ، مثلا ، تناوله للفروق في الخبر وتمييزه بين استعمال الفعل والاسم ، فيقول : " فإذا قلت : زيد منطلق، فقد أثبت الانطلاق فعلا له ، من غير أن تجعله يتجدد ويحدث منه شيئا فشيئا، ثم ينقلك بعد ذلك بالأمثلة إلى المقام الذي ينبغي ألا يقال فيه غير ذلك كما في قوله تعالى : "وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد" الكهف: 18 ويقول معقبا : فإن أحدا لا يشك في امتناع الفعل ههنا، وأن قولهم "وكلبهم يبسط ذراعيه" لا يؤدي الغرض.[24] لأن الغرض ههنا هو رسم تلك الصورة التي كان عليها الكلب الذي ظل باسطا ذراعيه طيلة الفترة التي لبثوها في الكهف. مما اقتضى استعمال الصفة دون الفعل، لأنه لا يعبر عن المراد، ولا يوافق المقام.

وإذا كان محمد مندور قد اكتفى بالتنويه واختار له مساحة معينة من مباحث الجرجاني فقد وسع غيره هذه الدائرة بل واتجه إلى تحقيق أفكار الجرجاني ولكن من خلال فهمه الخاص، نذكر من بين هؤلاء تمام حسان، من خلال نظرية القرائن.

2- نظرية النظم ونظرية القرائن :

لم يخف تمام حسان تأثره بالبلاغيين عموما وبالجرجاني بصفة خاصة. وهو يبدي إعجابه بـ "دلائل الإعجاز" في تناوله للجانبين النحوي والدلالي، فيقول :" ولما ظهر الاتجاه البلاغي إلى دراسة المعنى كان من طلائع كتبه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للعلامة عبد القاهر الجرجاني الذي أعترف لآرائه الذكية بقدر غير يسير من الفضل على الجزء الخاص بتناول المعنى النحوي والدلالي من هذا الكتاب "[25].ويعترف بفضله الكبير على الثقافة العربية عامة ، فيقول : "ولقد كانت مبادرة العلامة عبد القاهر بدراسة النظم وما يتعلق به من بناء وترتيب وتعليق من أكبر الجهود التي بذلتها الثقافة العربية في سبيل إيضاح المعنى الوظيفي في السياق أو التركيب "[26].ويعترف بجهود البلاغيين وينوه بفكرتي المقام والمقال. ويرى أنها قدمت لدراسة المعنى الاجتماعي أو المعنى الدلالي، كما يسميه، فكرتين تعتبران اليوم من أنبل ما وصل إليه علم اللغة الحديث في بحثه عن المعنى الاجتماعي الدلالي، هما المقام والمقال. والربط بينهما في عبارتين مشهورتين أصبحتا شعارا يهتف به كل ناظر في المعنى: العبارة الأولى " لكل مقام مقال " والعبارة الثانية " لكل كلمة مع صاحبتها مقام"[27]. ويضيف: " لقد كان البلاغيون عند اعترافهم بفكرة المقام متقدمين ألف سنة تقريبا على زمانهم لأن فكرتي المقام والمقال باعتبارهما أساسين متميزين من أسس تحليل المعنى يعتبر الآن في الغرب من الكشوف التي جاءت نتيجة لمغامرات العقل المعاصر في دراسة اللغة "[28]. ومن آيات تأثر تمام حسان بالجرجاني قوله:" أجدني مدفوعا إلى المبادرة بتأكيد أن دراسة عبد القاهر للنظم وما يتصل به تقف كتفا إلى كتف مع أحدث النظريات اللغوية في الغرب وتفوق معظمها في فهم طرق التركيب اللغوي هذا مع الفارق الزمني الواسع الذي كان ينبغي أن يكون ميزة للجهود المحدثة على جهود عبد القاهر " [29]و قوله:" لعل أذكى محاولة لتفسير العلاقات السياقية فيتاريخ التراث العربي إلى الآن هي ما ذهب إليه عبد القاهر الجرجاني صاحب مصطلح التعليق وقد كتب دراسته الجادة في كتابه

دلائل الإعجاز تحت عنوان "النظم "[30]. ووقع اختياره على أربعة مصطلحات خصها بالذكر نظرا لما تكتسيه من أهمية في تفسير العلاقات السياقية : النظم، والبناء، والترتيب، والتعليق .

وقد فهم تمام حسان أن إنتاج الكلام في تصور الجرجاني يمر بأربع مراحل، : النظم والبناء والترتيب والتعليق .وذلك باعتبار الجرجاني كان في خدمة المتكلم، ينطلق في ذلك من تصوره الأشعري عن الكلام النفسي، وبذلك يعود بالنحو إلى العناية بما يدور في نفس المتكلم قبل أن يقول. وفيما يلي بيان هذه المراحل، نتناولها من وجهة نظر تمام حسان.

3-1النظم :

مدار النظم عند الجرجاني على معاني النحو وعلى الوجوه والفروق التي من شأنها أن تكون فيه وهي كثيرة لا تنتهي عند نهاية معينة، تعرض بحسب المعاني والأغراض المرومة وبحسب الموقع والاستعمال[31]وقد فهم تمام حسان أن النظم عند عبد القاهر يعني نظم المعاني النحوية في نفس المتكلم لا بناء الكلمات في صورة جملة ثم اتجه إلى تقسيم هذه المعاني فرأى أنها تشمل [32]:

- معاني أقسام الكلم كالحدث والزمن والاسمية والكنية والاستعلاء وابتداء الغاية والعطف والاستدراك الخ...
- معاني الصيغ كالطلب والصيرورة والاتخاذ والمطاوعة
- معاني أبواب النحو كالإسناد والتعدية وغيرها
- معاني أساليب الجمل كالخبر والتأكيد والشرط والإنشاء الخ...

يعمد المتكلم إلى اختيار ما يناسب غرضه من هذه المعاني فيوردها على خاطره قبل أن يبني لها الكلمات أو يرتبها، وهي مرحلة نفسية خالصة لا توصف بمفردات الكلمات ولا برصفها في سياق مستمر[33].مستفيدا في ذلك مما بينها من فروق. والفروق تعني حسب تمام القيم الخلافية بين المعنى والمعنى أو بين المبنى والمبنى[34]، ومن ذلك تناول الجرجاني لقضايا التقديم والتأخير وبيان أثرها على المعنى، يقول الجرجاني: " إن موضع الكلام على أنك إذا قلت أفعلت؟ كان الشك في الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده . وإذا قلت أأنت فعلت ؟" فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو، وكان التردد فيه"[35].

2.3- البناء :

ويفهم تمام حسان من مصطلح " البناء " عند الجرجاني أنه تصور لجعل المباني بإزاء المعاني النحوية الوظيفية كأن تبني لمعنى الفاعلية مبنى هو الاسم المرفوع في بعض المواطن أو الضمير في مواطن أخرى. فالبناء هو اختيار المباني التي يقدمها الصرف للتعبير عن المعاني النحوية وبوضع فكرة النظم بإزاء فكرة البناء يكون عبد القاهر قد عبر عن الارتباط بين المعنى والمبنى[36]. يقول تمام : " بعد أن يحدد المتكلم المعاني النحوية التي يريد التعبير عنها ويتم نظمها في نفسه، يبدأ في تأليف طوائف المعاني في صورة مجموعات تنتمي كل مجموعة منها إلى كلمة واحدة"[37].

على الرغم من أن ما ذهب إليه تمام حسان في بيانه لمفهوم البناء عند الجرجاني اجتهاد خاص به قد يكون تكلف فيه، ولكنه ليس بغريب عن فكر الجرجاني وحديثه عن المعاني النفسية، إذ إن إنتاج الخطاب عنده، يتم عبرالمراحل التالية :

- تحديد القصد التواصلي
- تحديد فحوى الخطاب
- التلفظ أو التحقيق الصوري[38].ولكن يبقى مع ذلك مجرد اجتهاد يجعل تمام حسان نفسه يأسف لأن الجرجاني لم يتفضل بشرح كل المصطلحات التي استعملها.

3.3- الترتيب:

يقتضي الترتيب أن يكون الفعل قبل الفاعل والحرف قبل مدخوله وهكذا، لتتحول الكلمات إلى جملة.وهنا أيضا نجد تمام حسان يعمل رأيه في فهم ما يريد الجرجاني من مصطلح الترتيب فيقول:" أميل إلى الاعتقاد أن عبد القاهر حين صاغ اصطلاحه الترتيب قصد به إلى شيئين : أولهما ما يدرسه النحاة تحت عنوان الرتبة ، وثانيهما ما يدرسه البلاغيون تحت عنوان التقديم والتأخير"[39]. ومنه جاء كلامه عن الرتبة المحفوظة التي تقتضي أن يتقدم الموصول على الصلة والموصوف على الصفة ويتأخر المعطوف بالنسق عن المعطوف عليه والتوكيد عن المؤكد، وصدارة الأدوات في أساليب الشرط والاستفهام والتحضيض وغيرها. وهي رتبة يختل التركيب باختلالها أما الرتبة غير المحفوظة فيعبر بها عن حرية الرتبة ومن ثم لا يختل التركيب باختلالها[40]. وهذا الذي يذهب إليه تمام حسان له ما يبرره من قول الجرجاني إذ يقول :" وفي نظائر ذلك ما وصفوه بفساد النظم، وعابوه من جهة سوء التأليف، أن الفساد والخلل كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب، وصَنَع في تقديم وتأخير، أو حذف وإضمار أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه، وما لا يسوغ ولا يصح على أصول هذا العلم "[41]. يقول ذلك معلقا على مجموعة من الأمثلة منها، قول الفرزدق :

وما مثله في الناس إلا مملكا أبو أمه حي أبوه يقاربه

وفي هذا يبدو تركيز الجرجاني على قضايا النظام اللغوي التي بها يوسم التركيب بالصحة أو الخطأ وبها يفهم الكلام على أكمل وجه وأتمه. وهي مسألة عمل تمام حسان على بحثها والتدقيق فيها بتناول قضايا التركيب المختلفة بالتفصيل تحت عنوان القرائن اللفظية والمعنوية.

4.3- التعليق :

يعتبر تمام حسان التعليق أخطر شيء في نظرية النظم. و التعليق، كما يفهمه هو، إنشاء العلاقات بين المعاني النحوية بواسطة ما يسمى بالقرائن اللفظية والمعنوية. هذه القرائن هي، في نظر تمام حسان مناط التعليق، وبذلك يكون التعليق هو الإطار الضروري للتحليل النحوي. وهو يتحقق بالتضام والمطابقة والربط الذي يؤدي إلى توثيق الأواصر بين عناصر الجملة على صورة تتحدى الفصل، والاعتراض، والاستتار، والحذف، مما يجعل المعنى الكلي للكلام واضحا. يستخلص ذلك

من أقوال الجرجاني المختلفة. منها، قوله:" واعلم أنك إذا رجعت إلى نفسك علمت علما لا يعترضه الشك أن لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض ويبنى بعضها على بعض وتجعل هذه بسبب من تلك". وقوله وهو يعرف التعليق "وإذا كان ذلك كذلك، فبنا أن ننظر إلى التعليق فيها والبناء، وجعل الواحدة منها بسبب من صاحبتها، ما معناه وما محصوله؟ وإذا نظرنا في ذلك، علمنا ان لا محصول لها غير أن تعمد إلى اسم فتجعله فاعلا لفعل أو مفعولا أو تعمد إلى اسمين فتجعل أحدهما خبرا عن الآخر أو تتبع الاسم اسما على أن يكون الثاني صفة للأول ، أو توكيدا له أو بدلا منه "[42].من هذ النص وأمثاله، بدا لتمام حسان أن التعليق هو أخطر شيء لأنه يجعل من السياق نسيجا، على حد تعبير الجرجاني، تتضافر مكوناته. ولذلك وجدناه يلح على تفصيله تحت عنوانين يندرجان تحت عنوان أكبر هو: "العلاقات السياقية" كونها تربط بين الأبواب، ويعبر عنها بالقرائن المعنوية و"القرائن اللفظية" باعتبارها تمثل الشق الثاني لمناط التعليق. وقد تناول تمام حسان القرائن في أكثر من كتاب بل عمل على تطبيقها في كتابه البيان في روائع القرءان. تتضافر هذه القرائن لأداء المعنى حين تكفي فيه معرفة اللغة أو قل يكفي في بيانه تضافر القرائن المقالية، ويبقى أن يستعان في بيان المعنى الدلالي أو قصد المتكلم، عندما لا يكون ذلك كافيا، بالمقام الذي صيغ فيه الكلام.

هذه بعض ملامح تأثر تمام حسان بنظرية النظم ، إجمالا، وتفصيلها يقتضي كتابا أو كتبا.

كيف تحدث اللغة في تصور الجرجاني؟

لفت أنظار التوليديين العرب التقارب بين رؤى الجرجاني وما جاء في الفكر التوليدي التحويلي في مجموعة من القضايا تجيب عن السؤال كيف تحدث اللغة منها: البنية العميقة وعلاقتها بالبنية السطحية، والعلاقة بين النحو والدلالة، وعناصر التحويل وغيرها ، وإليك بعض هذه المباحث .

1.4- البنية العميقة والبنية السطحية:

يرى حسام البهنساوي أن مصطلح النظم، عند عبد القاهر الجرجاني، يلتقي مع مفهوم البنية العميقة عند تشومسكي، فيقول: " لقد أجاد عبد القاهر أيما إجادة، عندما جعل النظم، وهو ما يطلق عليه البنية العميقة في النظرية التوليدية التحويلية، جعله يقتفي في نظمه آثار المعاني، وترتيبها على حسب ترتب المعاني في النفس "[43]. فهم ذلك من قول الجرجاني عن نظم الكلم الذي يختلف عن نظم الحروف الذي هو توالبها في النطق، حين يقول:"و أما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتبها على حسب ترتب المعاني في النفس"[44]. ويزداد ذلك وضوحا عندما يقول: " والفائدة في معرفة هذا الفرق أنك إذا عرفته عرفت أن ليس الغرضُ بنظم الكلم، أن توالت ألفاظها في النطق، بل أن تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها، على الوجه الذي اقتضاه العقل"[45]. ويفهم من قوله: "أنه لو كان القصد بالنظم إلى اللفظ نفسه، دون أن يكون الغرض ترتيب المعاني في النفس، ثم النطق بالألفاظ على حذوها. لكان ينبغي أن لا يختلف حال اثنين في العلم بحسن النظم أو غير الحسن فيه، لأنهما يحسان بتوالي الألفاظ في النطق إحساسا

واحدا، ولا يعرف أحدهما في ذلك شيئا يجهله الآخر"[46] وهذه النصوص تؤكد على صياغة البنية السطحية، وفقا لقواعد الكفاءة في البنية العميقة، فهو إذن يولي اهتماما جليا بما يطلق عليه في النظرية التوليدية التحويلية بالحدس اللغوي، الذي يعد الموجه الأول للتفسير الدلالي من حيث اتصاله بجوهر التركيب، والإمكانات التفسيرية المتصلة بالصورة التجريدية"[47] وهذا في حد ذاته يصل بنا إلى قضية أخرى هامة في نظرية النظم تتمثل في ربط التركيب بالدلالة ، وهي مسألة تناولها النحو التوليدي. ونحن نورد هذه العلاقة فيما يلي:

2.4- النحو والدلالة:

في النحو التوليدي يعتمد المكون التركيبي على المكون الدلالي ويجعل أصحابه هذه العلاقة مرحلة من مراحل إنتاج الجمل تتمثل في إدخال مكون دلالي يمكن من خلاله تفسير الخروقات التي تخرج بها المكونات التركيبية عن المألوف عندما يتعلق الأمر بالمجاز أو ببعض التراكيب الملبسة التي تحتمل أكثر من مدلول في بنيتها السطحية[48] .وهي مسألة لم تخف على الجرجاني وهو يتعامل مع قضايا النظم نشير إليها في المبحث التالي:

- **المكون الدلالي والأثر التفسيري:**

تظهر العلاقة بين المكون الدلالي والأثر التفسيري في قول الجرجاني:"إن الألفاظ إذ كانت أوعية للمعاني، فإنها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أن يكون أولا في النفس، وجب للفظ الدال عليه أن يكون أولا في النطق. فأما أن تتصور في الألفاظ أن تكون المقصودة قبل المعاني في النظم والترتيب، وأن يكون الفكر في النظم الذي يتواصفه البلغاء فكرا في نظم الألفاظ، أو أن تحتاج بعد ترتيب المعاني إلى فكر تستأنفه لأن تجيء بالألفاظ على نسقها، فباطل من الظن ووهم يتخيل إلى من لا يوفي النظر حقه. وكيف تفكر في نظم الألفاظ وأنت لا تعقل لها أوصافا وأحوالا إذا عرفتها عرفت أن حقه أن تنظم على وجه كذا"[49] وفي هذا النص مقابلة بين قضايا التركيب المشار إليها بمعاني النحو والجانب الدلالي الناجم عن نظم ترتيب الألفاظ باعتباره تابعا للأول ومفسرا له . ومنه تكون مراحل إنتاج الكلام كما فهمها بعض التوليديين كما يلي :

- تبدأ المرحلة الأولى بالمعاني النحوية التي تمد الجملة بالمعنى الأساسي في علاقة الوظائف النحوية بعضها بالبعض الآخر، ويفسر ما قد يؤدي إليه المنطوق الظاهري من الالتباس.
- أما المرحلة الثانية فتتمثل في وضع العناصر النحوية في الموضع الذي تقرره لها البنية الأساسية أو الصور التجريدية للقواعد في أذهان المتكلمين.
- وفي المرحلة الثالثة تأتي الصورة المنطوقة للجملة أي بناء الجملة. وهذه بدورها مكونة من الأصوات التي تشكل المفردات بصيغها التي تختار وفقا لقيود الاختيار بين الحقول الدلالية والسياق المناسب[50].

وإذا تمعنا في تطبيقات الجرجاني وجدنا هذه العلاقة متبادلة بين اختيار المفردات واختيار العلاقات النحوية الصالحة. ولنأخذ تعليقه على بيت بشار كمثال:

كأن مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

إذ يقول : " وانظر هل يتصور أن يكون بشار قد أخطر معاني هذه الكلم بباله أفرادا عارية من معاني النحو التي تراها فيها ، وأن يكون قد وقع " كأن " في نفسه من غير أن يكون قصد إيقاع التشبيه منه على شيء، وأن يكون فكر في " مُثار النقع"، من غير أن يكون أراد إضافة الأول إلى الثاني، وفكر في " فوق رؤوسنا"، من غير أن يكون قد أراد أن يضيف "فوق" إلى "الرؤوس"...ثم يجعل الجملة صفة لليل ليتم الذي أراد من التشبيه[51].

وفي هذا المثال جزم بأنه لا يتصور أن يُعرف للفظ موضع من غير أن يُعرف معناه، ولا أن يُتوخى في الألفاظ من حيث هي ألفاظ ترتيبا ونظما، وأن الترتيب يُتوخى في المعاني، فإذا تم ذلك أتبعت بالألفاظ. فإذا فُرغ من ترتيب المعاني في النفس لم يُحتج إلى أن يُستأنف الفكر في ترتيب الألفاظ، التي تترتب بحكم أنها خدم للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها، ذلك أن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق. [52]. وهنا نجد أنفسنا أمام ما سماه حسام البهنساوي النّدّية بين الجانبين، المفردات والعلاقات النحوية ، وإذا كان تشومسكي يكتفي بجعل المكون الدلالي مفسرا فإن الجرجاني يجعل هذا التفسير متبادلا بين الطرفين. يقول البهنساوي في ذلك : " ونستطيع أن نقرر بأن الجرجاني أولى الجانب الدلالي الأهمية التي أولاها للتركيب النحوي، وأن كليهما في الميزان راجحان، ولا ينبغي أن ننسب للواحد منهما فضلا أو تميزا على الآخر فهما يتضافران من أجل الوصول إلى النظم البليغ[53].

3- المنحى التداولي عند الجرجاني:

تعنى التداولية بإيجاد القوانين الكلية للاستعمال اللغوي والتعرف على القدرات الإنسانية للتواصل اللغوي، انطلاقا من أن الوظيفة الأساسية للغة هي التواصل الذي ينجم عنه تفاعل يكون به التأثير على الغير وتغيير الواقع. والتداولية تأخذ بعين الاعتبار كل الظروف التي يخرج من رحمها الخطاب وذلك لا يكفي فيه تناول اللغة من جانبها النظري الذي لا يهمه سوى نظام اللغة والعلاقات الرابطة بين المكونات والوظائف الناجمة عن ذلك.

وهذا الذي ذكرناه عن التداولية يتقاطع في مساحة واسعة مع البحث البلاغي ابتداء من وظيفة اللغة، مرورا بالتمظهرات اللغوية المختلفة، وصولا إلى تبليغ المقاصد المرادة، والتأثير في المستمع بشتى الوسائل الممكنة. وسنعمل فيما يلي على تناول بعض المفاصل التي يلتقي فيها البحث البلاغي (عند الجرجاني) مع البحث التداولي .

1.5- وظيفة اللغة :

لم تكن الوظيفة الأساسية للغة خافية عن علماء اللغة العرب عموما وعلماء البلاغة خصوصا، فهذا ابن جني يعرف اللغة بقوله" أما حدها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم" [54]. وهذا الجرجاني يرى أن وظيفة اللغة هي التواصل بين الناس وتبليغ الأغراض فضلا عن التأثير في الغير فيقول:" اعلم أن الكلام هو الذي يعطي العلوم منازلها، ويبين مراتبها، ويكشف عن صورها، وبه أبان الله تعالى الإنسان من سائر الحيوان، ونبه فيه على عظم الامتنان، فقال عز وجل:"

الرحمن علم القرءان خلق الإنسان علمه البيان" الرحمن: 1-4 فلولاه لم تكن لتتعدى فوائد العلم عالمه، ولا صح من العاقل أن يفتق عن أزاهير العقل كمائمه، ولتعطلت قوى العقل والأفكار من معانيها...ولوقع الحي الحساس في مرتبة الجماد"[55].ويقول: "الدلالة على الشيء هي لا شك إعلامك السامع إياه، وليس بدليل ما أنت لا تعلم به مدلولا عليه . وإذا كان كذلك وكان مما يعلم ببدائه العقول أن الناس إنما يكلم بعضهم بعضا ليعرف السامع غرض المتكلم ومقصوده، فينبغي أن ينظر إلى مقصود المخبر من خبره وما هو".[56] بمثل هذه النصوص يتحدد إطار البحث البلاغي الذي يتجاوز قضايا النظام اللغوي والتركيب إلى تناول اللغة أثناء الاستعمال، وما يحيط بعملية التواصل، وما ينتج عنها باعتبار التواصل هو وظيفة اللغة الأساسية التي تؤول إليها جميع الوظائف. والبلاغيون وإن كانوا لم يستعملوا مصطلحات المعاصرين فإنهم لم يقصروا في بيان غرضهم.

2.5 موضوع الدرس البلاغي

ما هو موضوع الدرس البلاغي؟ تختلف الإجابة عن هذا السؤال بحسب الإطار التاريخي والظروف المحيطة التي أدت إلى التركيز على هذا الجانب دون ذاك. ذلك أن البلاغة العربية اختلفت روافدها بين علماء الإعجاز والمتكلمين والمتأدبين والنقاد وغيرهم ولكن لا شك أنه يمكن التمييز بين من كانت بلاغته خطابية تتجه إلى تناول الخطاب ككل، كما هو الشأن عند الجاحظ، وعلماء الإعجاز، وحازم القرطاجني، وغيره، وبين من ركز على العبارة أو الجملة. لكن هذا لا يمنع من القول إن علماء التراث عموما والبلاغيين خصوصا كانوا يمتحون من معين واحد هو الخطاب القرآني . ذلك أن العلوم التي عنيت بالدراسات اللغوية، ومن بينها البلاغة، تستهدف، على اختلافها فهم نص القرآن الكريم ودراسته واستخراج الأحكام الشرعية منه باعتباره أهم أدلة التشريع[57] وإذا كان علماء التراث يتعاملون مع القرآن الكريم فإن المعطيات التي يتمحور حولها الوصف اللغوي ليست جملا مفردة مجردة من مقامات إنجازها بل إنها خطاب متكامل متماسك الوحدات[58]. ومن ذلك كتاب "دلائل الإعجاز" الجامع بين قضايا النحو والبلاغة لعبد القاهر الجرجاني، لبيان إعجاز القرآن في نظمه لأن النظم لا يتعلق بالمعنى أو باللفظ وإنما هو عام يشمل كل شيء في النص القرآني اللفظ، السياق ...مواقع الكلم، مساق كل خبر، وكل مثل، ليخلص من ذلك إلى أنه نظام ملتئم محكم متقن [59] . ومنه يتبين أن موضوع البلاغة لم يكن الجمل المجردة أو الأمثلة المصنوعة وإنما هو الخطاب بمختلف أشكاله باعتباره الأساس الأول الذي يتطلبه الاستعمال. وقد كان ديدن الجرجاني أن يتناول بالدراسة الظاهرة اللغوية المرومة ثم لا يلبث أن يتجه إلى تناولها في الخطابات الحقيقية كما هو الشأن في مبحث التقديم والتأخير وغيره من المباحث ، وقد يتعامل مع الخطابات منذ البداية كما هو الشأن في مبحث الحذف.

3.5 الربط بين المقام والمقال

شاع لدى علماء البلاغة العربية أن لكل مقام مقالا وأن لكل كلمة مع صاحبتها مقاما وأن لكل حد ينتهي إليه الكلام مقاما[60] ذلك أنه "يترتب على طبيعة الموضوع المستهدف فهمه أو وصفه أن من المبادئ المنهجية التي ينبغي اعتمادها مبدأ الترابط بين المقال والمقام ، بين خصائص الجمل

الصورية وخصائصها التداولية"[61]. ولا شك في أن مباحث علم البلاغة اضطلعت بهذا الترابط بل كان في محل المركز منها لعنايتها الشديدة بأغراض المتكلمين ومقاصدهم، وتركيزهم على مطابقة الكلام لمقتضى الحال. [62] وقد جسد الجرجاني ذلك من خلال معالجته لمختلف الظواهر التي تربط بين وظيفة الكلام التداولية التي يتبين الغرض من خلالها والبنية التركيبية اللفظية،فقد تناول بالبحث ظواهر التقديم والتأخير، والحذف، والتعريف والتنكير، وغيرها مما يوجبه قصد المتكلم من خلال بيان الفروق والوجوه. يقول أحمد المتوكل:" بتعبير أدق عولجت هذه الظواهر(الظواهر اللغوية) في إطار تلازمين، تلازم الصيغة والغرض ، وتلازم الرتبة والنية. ففي إطار التلازم الأول درست الأساليب... في ترابطها مع الأغراض التي تعبر عنها، في حين درست في إطار التلازم الثاني ظواهر التقديم والتأخير.

4.5 .التركيز على قصد المتكلم :

لم يتناول البلاغيون الخطابات من وجهة نظر تخص نظام اللغة والآليات اللغوية بالبحث،بعيدا عن قصد المتكلم وإنما كان قصد المتكلم من الغايات المطلوبة والمثوبات المنوبة. فهم يركزون على الفهم والإفهام وعلى تبليغ القصد بأحسن الوسائل وذلك يبدأ من البداية، أي من تعريف البلاغة. وحسبنا في ذلك قول الرماني : "البلاغة هي إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ"[63]، وأن وضع الجرجاني فصلا خاصا يؤكد فيه على أن مزايا النظم وما يتصل به من فروق ووجوه إنما تعرض بحسب المعاني والأغراض التي تؤم [64]. وقد رأينا في ما سبق من المباحث كيف أن مخطط عملية التواصل عند الجرجاني يبدأ بتحديد القصد التواصلي أو الغرض.

5.5 الاستدلال على المعنى المتضمن

الاستدلال إجراء يتمثل في استنتاج معلومات جديدة انطلاقا من مقدمات معينة [65] وقد تناوله مجموعة من الباحثين في الحقل التداولي، الذين بحثوا في تأويل الملفوظات معتمدين على إجرائين، الأول: الإجراء الترميزي ويتكفل به التحليل اللساني، أما الثاني فيتمثل في الإجراء الاستدلالي ويتكفل به التحليل التداولي. [66]وهذه الإجراءات ترتبط بالسياق التلفظي، حيث يعمد المخاطب إلى بعض الحوسبات التأويلية وهي عبارة عن عمليات منطقية واستثمار للمعارف المختلفة، ينجم عنها استنتاجات مرتبطة بالسياق. ويكون ذلك باستعمال قاعدة الملاءمة. وهذه العملية لها نظائرها عند الجرجاني الذي بحث في معنى المعنى إذ يقول:" الكلام على ضربين ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده...وضرب أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل...أولا ترى أنك إذا قلت "هو كثير رماد القدر" أو قلت "طويل النجاد" أو قلت في المرأة "نؤوم الضحى" فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيا هو غرضك كمعرفتك من" كثير رماد القدر" أنه مضياف ومن "طويل النجاد" أنه طويل القامة ومن "نؤوم الضحى" في المرأة أنها مخدومة مترفة لها من يكفيها

أمرها"[67]. ويقول:" وإذ قد عرفت هذه الجملة فهنا عبارة مختصرة وهي أن تقول المعنى ومعنى المعنى، تعني بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة وبمعنى المعنى أن تعقل من اللفظ معنى ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر كالذي فسرت لك" [68]. يقول حمادي صمود معلقا على كلام الجرجاني "والتأويل اللغوي لهذه العلاقات هو أن العناصر الدالة في اللغة لا تقف عند حد الألفاظ فالمعنى أيضا يمكن أن يتحول إلى دال فتصبح العلاقة بين البنية اللغوية الماثلة والمعنى المراد علاقة مركبة أو علاقة من درجة ثانية وقد علق الجرجاني على ذلك بمصطلح غاية في الدقة والنباهة هو الواسطة وبموجبه تتحدد العلاقة في الاستعمال الخالي من المجاز بأنها مباشرة ينطبع المعنى في الذهن بمجرد التلفظ أما في الأدب فتكون هذه العلاقة غير مباشرة ولابد لإدراكها من تأويل معنى اللفظ والبحث عن مدلوله وهذا لا يحصل إلا من طريق العقل والاستدلال لأن العلاقة بين المعنى الأول والمعنى الثاني علاقة لطيفة لا يتوصل إليها إلا بالنظر الدقيق"[69]

وهذا الذي ذكرناه يؤكد تأصل المنحى التداولي عند الجرجاني، الذي شاع تناوله عند التداوليين العرب، تحت عناوين مختلفة منها ، مثلا، ما جاء عند العمري تحت عنوان "المناسبة التداولية" في ثنايا دراسته لدلائل الإعجاز.ومن ذلك قوله: "أما التصور التداولي المقصدي، في الدلائل ،فقد حاول استيعاب المادة الانزياحية وتهذيبها بجعلها مشروطة بالنظم، وتابعة له برغم الاضطراب الواقع في ذلك" [70]. وقد تناوله شكري المبخوت تحت عنوان" الاستدلال بالمعنى على المعنى (مشروع عبد القاهر الجرجاني).[71] وقد نوه بهذه الطريقة في التناول حمادي صمود في كتابه التفكير البلاغي[72]. والاستدلال من أهم المفاهيم التداولية كما بيناه سابقا.

خاتمة :

يحق لنا أن نتساءل، بعد هذه الجولة في بعض آثار الجرجاني في البحث اللساني العربي، ما الذي جعل الاتجاهات اللسانية العربية تسارع إلى تبني أفكاره؟ وقد بدا واضحا، من خلال ما تقدم، أن جميع هذه الاتجاهات وجدت في فكر الجرجاني ما يصلها به. فالبنيوي يجد عند الجرجاني العناية بالتركيب، والعلاقات بين المكونات،وما يتصل بنظام اللغة بسبب. والتوليديون يجدون عنده ما يعبر عن صميم فكرتهم التي تهدف إلى بيان الكيفية التي بها تنتج اللغة باعتبار الجرجاني ينطلق من المتكلم والمعاني النفسية قبل التلفظ ليصف الطريقة التي تحدث بها اللغة والوظيفي يجد عنده ارتباط البنية بالوظيفة المعبر عنها بمطابقة الكلام لمقتضى الحال. والتداولي يجد العناية بالاستعمال اللغوي مع الاستفادة من كل ما يمكن أن يؤدي إلى استخلاص المعاني المقصودة من قبل المتكلم. وإذا كان ذلك كذلك فإنه يكشف على الطريقة المتكاملة التي اتخذها الجرجاني وهو يتناول المعاني متوسلا إليها بكل ما يمكن أن يكشف عن قناعها . مما جعله حقيقا بان يكون محطة يلتقي فيها التفكير اللساني العربي.

الإحالات:

[1] ينظر محمد العمري، 2017، المحاضرة والمناظرة، افريقيا الشرق، المغرب ، ص 69/68

[2] ينظر مصطفى غلفان، 2013، اللسانيات العربية أسئلة المنهج، دار ورد الأردنية، ط1، ص 225

[3] إبراهيم مصطفى، 1992، إحياء النحو، القاهرة، الطبعة الثانية، 1992، ص ب.

[4] نفس المرجع، ص 3/2

[5] نفس المرجع، ص 4

[6] المرجع السابق، ص 16

[7] نفس المرجع، ص 20

8 إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، ص 1

9 مهدي المخزومي ، 1986، في النحو العربي نقد وتوجيه، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ط1ص 33.

10أبو يعقوب السكاكي، 1987 ، مفتاح العلوم، ت: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، ط1، ص 75.

11ينظر مهدي المخوزمي، في النحو العربي نقد وتوجيه، ص 226/225.

[12] نفسه، ص 225.

[13] ينظر المرجع السابق نفس الصفحة.

[14] ينظر نفسه، ص 228.

15ينظر دلائل الإعجاز ، ت: محمود محمد شاكر ، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ص 65 .

[16]Jean Dubois et autres:Dictionnaire de linguistique, Larousse Paris,dernière édition ,1973,p481.

17 محمد مندور ، 1996،النقد المنهجي عند العرب، دارنهضة مصر،، ص 333 /334.

[18] محمد مندور، 2017، في الميزان الجديد، مؤسسة هنداوي ، المملكة المتحدة ، ص 154

[19] عبد القاهر الجرجاني، دس، أسرار البلاغة، ت: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ، القاهرة، دط، ص 9

[20] محمد مندور النقد المنهجي عند العرب، ص 335

[21] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 81

[22] نفسه، ص 83/82 .

[23] محمد مندور، منهج النقد، ص 336

24ينظر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 175

[25] تمام حسان اللغة العربية معناها ومبناها، ص 18/17

[26] نفسه، ص 18

[27] ينظر تمام حسان، ، 1994، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء، ص 20

[28] اللغة العربية معناها ومبناها ، ص 337

[29] نفسه، ص 18/ 19

[30] نفسه، ص 186

[31] ينظر الجرجاني ، دلائل الإعجاز، ص 87

[32] تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، عالم الكتب، القاهرة ، ط1، ج2، ص 335/334

[33] ينظر تمام حسان ، مقالات في اللغة والأدب، ج2، ص 335.

[34] اللغة العربية معناها ومبناها ، ص 187.

35 الجرجاني ، دلائل الإعجاز، ص 111.

[36] اللغة العربية معناها ومبناها، ص 187.

[37] تمام حسان، مقالات في اللغة والأدب، ص 335.

[38] ينظر أحمد المتوكل،الوظيفة بين الكلية والنمطية، مطبعة الكرامة، الرباط ، ط1، 2003، ص 31.

[39] اللغة العربية معناها ومبناها، ص 207.

[40] ينظر اللغة العربية معناها ومبناها ، ص 207.

[41] دلائل الإعجاز، ص 84.

[42] دلائل الإعجاز ، ص 55.

[43] حسام البهنساوي، 1994، أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ، ص 37.

[44] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 49.

[45] نفسه، ص 50/49.

[46] دلائل الإعجاز، ص 51.

[47] ينظر أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، ص 36.

[48] ينظر نفسه، ص 37.

[49] الجرجاني، دلائل الإعجاز ص 53/52.

[50] ينظر محمد عبد اللطيف حماسة، 2000، النحو والدلالة، دار الشروق، القاهرة، ط1 ، ص 99

[51] الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 412/411

[52] ينظر نفسه، ص 53 /54.

[53] ينظر حسام البهنساوي، أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، ص 39/38.

[54] ابن جني أبو الفتح عثمان بن يحي، 2001، الخصائص، ت: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، ج1، ص 87.

[55] الجرجاني، أسرار البلاغة، ص3.

[56] دلائل الإعجاز، ص 530.

[57] ينظر أحمد المتوكل، 2006، المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، دار الأمان، الرباط، ط1، ص 166.

[58] ينظر أحمد المتوكل، 2010، اللسانيات الوظيفية، دار الكتاب الجديد، بنغازي، ليبيا، ط2، ص 40.

[59] ينظر إبراهيم خليل، 1997،الأسلوبية ونظرية النص، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، ص 39.

[60] ينظر السكاكي أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، 1987،مفتاح العلوم، ت: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية ، بيروت ط2، ص 168.

[61] أحمد المتوكل اللسانيات الوظيفية، ص .40 .

[62] اللسانيات الوظيفية، بتصرف طفيف، ص 41.

[63] الرماني، أبو الحسن بن عيسى، 1934، النكت في إعجاز القرءان، ت: الدكتور عبد العليم، مكتبة الجامعة الملية ، دهلي ص 1

[64] ينظر دلائل الإعجاز، ص 87

[65] ينظر93 Martine Bracops, , 2006 Introduction à la pragmatique,De Boeck, Bruxelle, 1ère édition,p

[66] نفسه، ص 107

[67] دلائل الإعجاز، ص 262

[68] دلالئل الإعجاز ، ص 263

[69] حمادي صمود 1981، التفكير البلاغي عند العرب ، منشورات الجامعة التونسيةص 412

[70] محمد العمري ، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها ، ص353/352 .

[71] شكري المبخوت، 2010، الاستدلال البلاغي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ص 27

[72] حمادي صمود، التفكيرالبلاغي، ص 413/410

المراجع:

- محمد العمري،2017، المحاضرة والمناظرة، افريقيا الشرق، المغرب .
- مصطفى غلفان اللسانيات العربية ، 2013، أسئلة المنهج ، دار ورد الأردنية، ط1.
- إبراهيم مصطفى ،1992، إحياء النحو ، القاهرة، الطبعة تالثانية .
- مهدي المخوزمي، 1986، في النحو الغربي نقد وتوجيه، منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، ط1.
- محمد مندور، 1996،لنقد المنهجي عند العرب، دارنهضة مصر.
- محمد مندور، 2017، في الميزان الجديد، مؤسسة هنداوي ، المملكة المتحدة.
- عبد القاهر الجرجاني ، دس، أسرار البلاغة ، ت: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ، القاهرة، دط.

- عبد القاهر الجرجاني ، 1984، دلائل الإعجاز، ت: محمود شاكر، مكتبة الخانجي.
- تمام حسان ، 1994، اللغة العربية معناها ومبناها، دار الثقافة، الدار البيضاء.
- تمام حسان، 2006، مقالات في اللغة والأدب، عالم الكتب، القاهرة، ط1.
- حسام البهنساوي،1994، أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- محمد عبد اللطيف حماسة ، ا 2000، لنحو والدلالة ، دار الشروق، القاهرة، ط1 .
- خليل أحمد عمايرة ، 2004، المسافة بين التنظير النحوي والتطبيق اللغوي ،دار وائل ، عمان، ط1.
- ابن جني أبو الفتح عثمان بن يحي، 2001، الخصائص، ت: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1.
- أحمد المتوكل،2006،المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، دار الأمان ، الرباط، ط1.
- أحمد المتوكل، 2010، اللسانيات الوظيفية، دار الكتاب الجديدة المتحدة، ط2.
- أحمد المتوكل، 2003، الوظيفية بين الكلية والنمطية ، دار الأمان ، ط1.
- الرماني، أبو الحسن بن عيسى، 1934. النكت في إعجاز القرءان، ت: الدكتور عبد العليم، مكتبة الجامعة الملية ، دهلي.
- حمادي صمود،1981، التفكير البلاغي عند العرب ، منشورات الجامعة التونسية .
- شكري المبخوت، 2010، الاستدلال البلاغي، دار الكتاب الجديدة المتحدة،
- Martine Bracops, 2006, Introduction à la pragmatique,De Boeck, Bruxelle, 1ère édition.
- Jean Dubois et autres:Dictionnaire de linguistique, Larousse Paris,dernière édition ,1973.